# الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين

د. نهى حمدي أحمد إبراهيم

**إن قراءة النصوص الشعرية تنبني في المقام الأول على سبر أغوار النتاج الأدبي، والوقوف على مكنوناته، والوصول إلى بنيته العميقة دون السطحية، والتي تحدد بدورها فاعليته وقيمته في محيطه الثقافي والأدبي. وقد أدى الرواة والمحققون العرب والمستشرقون دورًا بالغ الأهمية في إقصاء، أو لنقل" قمع" بعض النتاجات الأدبية، التي عدوها خارجةً عن الإطار الأدبي النقدي والأخلاقي والسياسي والديني، مما أحدث بدوره فجوةً بين رواية الشعر في الديوان، وروايته في كتب التراث. وقد ظهرت تلك الإشكالية بجلاء في أعمال المستشرقين الذين ارتأوا في "المسكوت عنه" في الشعر مظان السلب والعوار الذي يفت في عضد ثقافتنا العربية الأصيلة، فأخذوا على عاتقهم محوه تعضيدًا لسياساتهم التي اكتنفها العداء- حسْب الإواليات المسيطرة علينا دون استنطاقٍ فعليٍّ للنصوص الكاملة، وبعضهم قد حجب عن قراء العربية بعض النصوص متذرعًا بحصول المفسدة من إذاعتها، فقدم نصوصًا مبتورةً. الأمر الذي يختلف مع المحققين العرب الذين أخذوا على عاتقهم – في غالبية الأحايين- السكوت عن بعض جوانب ذلك التراث صونًا له، وإعلاءً لشأن العربية.**

**وتتغيا تلك القراءة الوقوف على فجوات ديوان العربية ورصد مسارات القمع وآلياته، وتحليل الوشائج بين عمل الرواة قديمًا، والمحققين العرب والمستشرقين حديثًا، وإعادة قراءة المشهد الشعري الذي قدمه ذلك "المسكوت عنه" وَفْق معطيات الثقافة العربية. ولا ينحصر حجم "المسكوت عنه" في أبيات محدودة في دواوين بعينها، بل لقد انسحب الحكم بالمسكوت عنه إلى حقبٍ تاريخية بأكملها امتدت إليها السلطة، وعملت على طمس معالمها، ونفي سيرة شخوصها، ولعل أبرز الأمثلة الدالة على ذلك النهج في تراثنا ما نلتقيه من محو لمعالم التاريخ الأموي ولسيرة بعض خلفائه، وكذا ما لحق بالتاريخ الفاطمي الذي اندثر تحت وطأة ثقافة "المسكوت عنه".**

وقد تباينت الآراء التي تناولت الجهود الاستشراقية في خدمة التراث، وتفاوتت زوايا النظر إلى المنهج الاستشراقي، وتقدير قيمته، "فلم يكن موقف كتابنا من الاستشراق واحدًا ولا مجمعًا عليه ولا مطردًا فيه، بل مشتتًا متناقضًا مضطربًا يدحض بعضه بعضًا"(١) فتذهب الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى أنه قد "وُضع هذا التراث بين أيدي المستشرقين الذين عكفوا عليه في شبه رهبنة، يفحصون نصوصه ويحققونها، وينشرونها على أحدث منهجٍ للتحقيق والضبط والنشر".(٢)

وعلى الجانب الآخر المناهض يذهب شكيب أرسلان إلى الحمل على الجهود الاستشراقية حملةً واسعةً، فيقول:" وعلى كل الأحوال لا يقدر أحدٌ أن يقول إن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين في آداب الشرقيين، ولغات الشرقيين... وإن من الحمق أن نظن مرجليوث بكونه إفرنجيًّا صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي".(٣) إن المدرسة الاستشراقية كانت تنتهج سبيل التدقيق والتمحيص لنصوص العربية قبل إخراجها،وقد وقفوا موقف المتفحص المتأمل في تحقيق مخطوطات العربية" ففلوجيل مثلا قضى خمسًا وعشرين سنة في جمع مخطوطات نص كتاب الفهرست لابن النديم، من مكتبات فيينا وباريس ولندن، ومات ولما يتم تحقيقها- ومن تصحيح ما فيها من تحريف أو تصحيف، ونقدها وتمحيصها على ضوء الاكتشافات الحديثة في الآثار والعلوم والآداب والفنون، ومن أمانة على النص بحيث لا يبيح أحدهم لقلمه أن يتناول كلمةً أو حرفًا منها بالحذف أو الإضافة أو التغيير، ومن شرح غوامضها والاستدراك عليها والإضافة إليها في هوامش صفحاتها...".(٤)

## العرب والمسكوت عنه:

لم يكن العرب بمنأى عن ضياع شطرٍ واسعٍ من تراثهم وإرثهم الشعري، فقد وقفوا فيه على جملةٍ من الممنوعات على الثقافة العربية الآنية، ارتأوا فيها مخالَفةً للتقاليد والآداب، فقاموا بطمسها ومحو

معالمها، وجهدوا في إخراج النصوص مبتورة مشوهة لا يستقيم مرادها، ولا يُطمأن إلى صحتها، لتوافق علة أذهانهم.

لقد عانت الثقافة الآنية من ضيق أفقٍ منع عنها رؤيةً شموليةً لعصرها، فقد تعسف المعاصرون في الحكم على المسكوت عنه، وأعملوا فيه قواعد زمانهم وآنيتهم، ولم يحكموا على تلك النصوص وَفق عصر إنتاجها، الأمر الذي أفرغ النصوص من فحواها، وأحالها إلى جثةٍ هامدةٍ لا تبين عن معالم زمانها، ولا تفصح عن خوالج أصحابها.

وتبرز إشكالية مهمة في ذلك السياق تنحصر حول ذلك المسكوت عنه الذي أحجم الرواة عن إيراده في ديوان الشعر العربي، ومقارنته بنظيره الذي شاع وانتشر في الثقافة العربية الإسلامية لشعراء يحملون السمت نفسه، فلماذا بقي شعر السموأل بن عادياء اليهودي أشهر شعراء اليهود، وانمحى أثر أشعارهم من ديوان العربية؟

وقد قدم المستشرقون تعليلًا مقبولًا في هذا السياق، ولعل السبب من وجهة نظرهم راجعٌ إلى دخول أهله في الإسلام، الأمر الذي حافظ على شعره، ولم يتعرض بعدها للضياع والاندثار والإقصاء كما فُعِل بغيره.(٥) إن ديوان الشعر الجاهلي لم يحفظ لنا شعرًا يهوديًّا خالصًا يحمل سمت اليهود الديني في عباداتهم وطقوسهم ومناسباتهم الدينية، فهو خلو من هذا الأثر المائز لأشعارهم دون غيرها.

ولعل من بين القصص التي تشير بطرفٍ خفيٍّ إلى قضية المسكوت عنه في الشعر العربي القديم ما أذيع عن أبي عمرو بن العلاء من حادثة إحراق كتبه، فقد "كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء، قد ملات بيتًا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تَقَرَّأَ فأحرقها كلها، فلما رجع بعد علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه. وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية".

وقد ذهبت الآراء غير مذهبٍ في تفسير تلك الحادثة، ولعل أقربها للصواب ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنه كان تحت تأثير أزمة دينية تدل على أن أوساط التدين في العراق لا تنظر بعين الارتياح إلى التنقيب عن بقايا الوثنية".(٦) إن تلك الحادثة تؤكد على صدور الإقصاء والحجب للشعر الذي حمل بذور الخلاف مع عقيدتهم الإسلامية.

ويذهب الدكتور طه حسين في مؤلفه" في الشعر الجاهلي إلى أن" الرواة يحدثوننا أن عمر نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي. وهذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى، وهي أن قريشًا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجي به بعضهم بعضًا أيام النبي، وكانوا حراصًا على روايته يجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر".(٧) ويستطرد طه حسين في ثنايا حديثه عن تلك العصبية التي نشبت بين قريش والأنصار ، فيقول:"ولا أريد أن أدع هذه العصبية دون أن أذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم أخي الخليفة مرّوان من هذا النضال العنيف الذي لم يبق لنا منه إلّا آثارًا قليلةً".(٨)

وتكمن محاطر البحث عن المسكوت عنه في طيات تراثنا العربي في استعصائه على التنقيب في بعض الأحايين" فقد تمكن بعض علماء الشعر من الإشارة إلى بعض الشعر المصنوع أو المدخول، ولم يتمكنوا من الإشارة إلى بعضه الآخر ".(٩)

لقد احتمل الرواة العبء الأكبر في إشكالية ضياع شعرنا العربي، وعول عليهم المتخصصون في حمل تبعة ذلك الفقد المقصود. وقد عقد الدكتور طه حسين في مؤلفه الشعر الجاهلي فصلًا خاصًا عن انتحال الرواة، فالرواة هم العماد الرئيس والركن الركين في ضياع شطرٍ لا يستهان به من تراثنا الشعري، وتنامي حجم" المسكوت عنه" في العربية، فقديمًا قال الحطيئة" ويل للشعر من الرواة السوء"(١٠) فقد دحضوا- في عظم الأحايين- رواية الأشعار التي تناهض معتقداتهم الفنية والعقائدية، وتتنافى مع إواليات نماذجهم الموضوعة سلفًا، والتي كان لزامًا على عصبة الشعراء أن ينتجوا إبداعهم وَفْق نهجها الصارم، وإلا حُكِم على نتاجهم الشعري بالنفي، وعلى شاعريتهم بعدم المشروعية والجواز، إن ذلك الصنيع الجائر كان مبعثه السلطة التي تحرض على عدم ذيوع الشعر الذي يخالف مذهبها، ويدعم منهجًا مناهض لسياستها.

ولم توافق علة فساد الرواة وانتحالهم رأي الرافعي الذي فنَّد بدوره صنيع طه حسين، فقد بلغ الخلاف بينهما أوج ذروته ، فقد أدحض الرافعي ما ذهب إليه عميد الأدب العربي معتمدًا على جملةٍ من الأدلة، كان من بينها:

- إن محو شعر النصارى واليهود أو المشركين لم يقع في عصور الإسلام الأولى.

- كان العرب يروون شعر اليهود، واستشهد بقول الجاحظ:" أدركت رواة المسجدين والزيديين، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الإعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود فإنهم كانوا لا يعدونه من الرُّواة". وقد فند بروكلمان قصدية الرواة في التحريف الذي نال الشعر الجاهلي" فيبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دورا ثانويا. وقد روى علماء المسلمين أشعارًا للجاهللين تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها، وإن أسقطوا أيضا أبياتًا أخرى لشبهات دينية، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة لأن الشعور الديني لم يكن غالبًا على نفوس العرب في الجاهلية".(١١)

ولعل من بين أبرز الإشكاليات التي تجابه تلك القراءة هي فاعلية المسكوت عنه في واقع ثقافتنا الآنية، فهل تمثل إعادة الطرح لذلك المسكوت عنه بوصفه لبنةً في بناء صورة مثلى لتراثنا العربي العريق، أم أنها تشكل حجر عثرة في سبيل تقدمنا الحضاري والإنساني؟

تميل بعض الأطروحات إلى جدوى إعادة نشر " المسكوت عنه" بغية الوقوف على ملامح الإيجاب والتميز والجدارة في بنية التراث العربي، فلعل الكشف عن ذلك" المسكوت عنه" يمثل دعامةً لثقافتنا المعاصرة، وأساسًا نتكئ عليه في سبيل نهضتنا، ويذهب آخرون إلى كونه لا يتعدى جرحًا غائرًا لا يجب علينا أن ننكأه أبدا، فسبيل التقدم الذي يتعين علينا أن نمضي فيه قدمًا لا يتماشى مع إواليات ذلك" المسكوت عنه" الذي يفرض علينا ظلالاً سوداويةً من السلب والوهن، ويفتح المجال رحبًا أمام معاول النقد والهدم التي قد تُوَجَّه إلى كيان تراثنا العربي. فهل تعد إعادة نشر ذلك" المسكوت عنه" خروجًا من عباءة الحفاظ على التراث العريق، أم سعيًا دؤوبًا مُلحًّا وفاعلًا لاستكمال بنيته المثلى من خلال إضافة تلك العناصر الغائبة، واستحضار مفرداته لتَمَثُّل بكثافتها وزخمها في العقل الجمعي؟

إن التراث العربي بأكمله يمثل لوحةً من الفسيفساء، التي يعد" المسكوت عنه"أكثر الأجزاء فيها وجاهةً ونصاعةً، وأقواها أثرًا في تشكيل ملامح تلك اللوحة الجدارية الفريدة.

لعل مناقشة أبعاد" المسكوت عنه" في تراثنا الشعري تعد- في بعض الأحايين- مطعنًا يفند أهمية هذا التراث وذلك البناء الثقافي الشامخ، ويضرب بعمقٍ في فاعلية التواصل الحضاري الثقافي المنشود بين ماضينا وحاضرنا.

إن الأمة العربية بحاجةٍ ماسةٍ إلى ما يعضد تماسكها، ويدعم التشابك والوحدة بين لحمتها وسداها، فبعض الآراء تشير إلى أنه قد يؤصل لشعور الاقتلاع والتشيؤ والانفصام، الأمر الذي يتنافى مع رسالة إحياء ذلك الإرث الثقافي، "فالمسكوت عنه" الذي يحمل بذور السلب والخلاف- من وجهة نظر بعضهم- يخترم بنية التراث المتماسكة، ويفند مشروعيتها في مواصلة دورها الحضاري الثقافي المعرفي، ويحيل التراث إلى كوةٍ معتمةٍ لا ينفذ منها شعاع التقدم والمعرفة.

إن إشكالية" المسكوت عنه" في تراثنا العربي حُبلى بتجلياتٍ متناقضةٍ تتصارع في فضاءاتٍ شتى، فبعضها يؤصل للاقتلاع والدونية والخلاف، ويعج بمفردات السلب التي تضرب في جذور ثقافتنا المتأصلة في كياننا وذواتنا، وبعضها الآخر ينصرف إلى معاني التجذر والكشف والفاعلية، ولن يمكن بأية حالٍ من الأحوال الاستفادة من طاقات درس المسكوت عنه في إعادة قراءة تراثنا العربي مادمنا لا نتسلح بإعادة تأويل مفردات مشهد قبولنا لذاك "الآخر" الذي استقر في مساراتٍ مضادةٍ في كياناتنا وذواتنا.

## المبدع والمسكوت عنه :

لم تنصرف تبعة ضياع شطر كبيرٍ من شعرنا العربي إلى الرواة والمستشرقين والمحققين العرب فحسب، بل شارك في هذا المضمار السلبي جملةٌ من الشعراء الذين عملوا على نفي إبداعاتهم التي لا توافق مراد السلطة، سواءٌ أكانت تلك السلطة سياسية أم فنية نقدية.

ويطرح في هذا السياق سؤالٌ محوريٌّ مُفاده:

ما دور المبدع في وأد التصريح، وخلق فضاءاتٍ من المسكوت عنه؟

يعد المبدع هو أولى الحلقات التي تنتج فضاءات كثيفة من المسكوت عنه ، وتختبئ ذاته خلف جدرانه، فلقد حرص المبدعون على ممالأة السلطة الحاكمة في غير عصرٍ من عصور تاريخنا العربي خشية البطش والإقصاء، ورغبةً في التكسب، الذي يعد محركًا رئيسًا للشعر العربي القديم.

لم يشكل الشعر العربي القديم بئرًا كدودًا لا يُنال إلا بجهدٍ ومشقةٍ وعُسر، بل مثَّل عينًا عذبةً يمتاح منها الرواة والمستشرقون والمحققون، ويصدوا المتلقي عن ورود مظانها البكر. لقد كان الخلاف مع " الآخر" ضميمةً رئيسةً اعتملت في

اختياراتهم الشعرية، وقولبت عملية الانتقاء حسْب قواعد مفروضة سلفًا، فقد شكَّل "المسكوت عنه" ظلالًا شفيفةً تنبئ عن حجم هذا التصدير لتلك القوالب التي تموضع فيها الشعر العربي.

لقد امتدت غوائل الدهر إلى أنحاء تراثنا العربي في غير مظهرٍ، فتارةً يُمْنى بالحرق والغرق، وأخرى تغتاله أيدي المؤلفين الذين يدمرون مؤلفاتهم بأنفسهم تبرءً منها.

لقد شكل حاجز "الزمنية" دورًا بالغ الأثر في فقد عُظم النصوص، فتارةً يشترط لقبولها أن يقع المبدع في إهاب القديم، ويُنْفى كل ما يتعارض مع ذلك القدم، ويجتث كل دوال الحداثة ونتاجها الأدبي مهما بلغ شأو إبداعها، لأنها قد اخترقت حاجز "الزمنية" الذي تقولبت فيه الأحكام النقدية. لقد تعاملت تلك العصبة مع التراث الشعري بوصفه بنيةً جامدةً ساكنةً تنمحي فيها مظاهر الحياة.

والسؤال الذي يطرح في هذا السياق:

- هل افتض الشعر الجاهلي كنه ذلك العصر وما يعتوره من فلسفات ورؤى وهموم ومثالب؟
- هل اطرح الرواة والمحققون والمستشرقون شطرًا من شعر العربية؟
- هل صار الشعر الجاهلي صفر الوفاض من حديث الشعراء آنذاك عن أصنامهم وطقوسهم ومناسباتهم الدينية؟
- هل أخضع الرواة والمحققون والمستشرقون شعر العربية للمعايير الأخلاقية، وأقصوا ما يتنافى مع مسلماتهم وطبائعم وعاداتهم؟
- كيف تعامل الرواة والمحققون والمستشرقون مع الشعر الإيروتيكي الذي يبلور شعور اللذة والنشوة والشهوة والافتتان بالكيان المادي لجسد المرأة؟
- ما حدود الإقصاء التي طبقت على التراث الشعري؟

لقد نَصَّب الرواة أنفسهم على ثُغَر التراث الشعري، وأقاموا لا يبرحون أماكنهم تنقيحًا لذخائره وَفْق رؤاهم وثقافاتهم وفلسفاتهم. لقد اعتاف أولئك الرواة الشعر الجاهلي بصورته التامة المعبرة عن تفصيلات العصر ومشكلاته، وما يعتوره من هموم ومثالب، فأعملوا فيه معاول" الهدم" و" الحذف" لما يتعارض مع فلسفاتهم ومنظورهم الفكري والديني. لقد مثل الرواة كواكبًا ثاقبةً في انتحال الشعر، وتغيير معالمه، وانتحال أبياته.

فمرجليوث قد قوض النص الشعري، وقام بِلَيِّ عنقه تطويعًا له بما يتفق وقواعد العصر الحديث، ويتماشى مع معطيات الأخلاق التي تتجاهل طبيعة الزمن والبيئة والمكونات التي أنتجت في خضمها تلك النصوص، ومن ثم، فإن تلك النصوص المحذوفة" المسكوت عنها" من قِبَل جماعة المستشرقين قد تكون مؤشرًا بالغ الخطر على عدم الإدراك الواعي لطبيعة التراث العربي، وكذا البيئة والشخوص المنتجين لتلك النصوص.

وتطرح معالجة المستشرقين للتراث العربي إشكاليةً مُفادها:

ما حجم النتاج الاستشراقي الذي ينبغي ألا نعول عليه في قراءة تراثنا العربي؟ وما الشروط والمحددات التي يتحتم عندها على القائمين في حقل التحقيق حينئذٍ إعادة إصداره بنشراتٍ نقديةٍ تتوخى الدقة والمنهجية العلمية؟ وهل انخرط المستشرقون في قالب السلب عندما عالجوا إواليات التراث الشعري، وأعملوا الحذف في بنية النصوص التراثية المختارة؟

## مرجليوث والمسكوت عنه :

لقد نص مرجليوث في مقدمة نشرته النقدية على صنيعه بحذف الأبيات، فنراه يقول:" وقد جمعت بين النسختين، ولم أترك مما فيها إلا ما كان مخالفًا لآداب عصرنا هذا، فوضعت في كل بيت ما ظهر لي أنه أصح..."

إن مرجليوث قد أعمل قواعد العصر الحديث في بنية الشعر القديم، وقوض النص اعتمادًا على معطيات العصر الحاضر، وألزم النص الأدبي القديم بشرائط أخلاقيةٍ آنيةٍ تغاير ما هو سائدٌ في عصور إنتاجه. إنّ مرجليوث لم يقف بالمتلقي على عتبات المحو، ولم يفصح بجلاءٍ وشفافيةٍ عن حجم المسكوت عنه في بنية النص الأصلي للمخطوط.

إن ذلك المسكوت عنه يفصح عن تلك العصبة- الرواة والمستشرقين والمحققين- التي وقفت في عُظم الأحايين موقفًا معاديًا من " الآخر"، فعلم تحقيق النصوص ينبني على تقديم النص التراثي على أقرب صورةٍ لما تركه عليه مؤلفه، لكن النظرة المتفحصة لدور التحقيق تكشف عن أثر هؤلاء المحققين في ضياع شطرٍ كبيرٍ من الشعر العربي، فلقد أخذ هؤلاء المحققون على عاتقهم تنقيح ذلك الإرث الثقافي، وتقديمه للقارئ دون سلبٍ أو عوارٍ في القالب الفكري الذي تمخضت عنه عقول أولئك المبدعين، فأعملوا فيه

الحذف والتهذيب قبل أن يحين قطاف ثمرة ذلك الإبداع من لدن المتلقي، ولم يراعوا في صنيعهم أن " المسكوت عنه" الذي أقصوه عمدًا من بنية تلك النصوص التراثية يمثل مرآةً كاشفةً لطبيعة ذلك الإرث الثقافي. لقد انتفضت هممهم، وأطافت عزيمتهم حول حمى الإبداع وذراه، فراحوا يعملون معاولهم في بنية ذلك الإرث الثقافي العتيد تنقيةً له من مزاعم مفترضة ارتأوها -آنذاك- تقض أركانه، وتفت-من وجهة نظرهم- في عضده، لقد ذَمَّرَهُم الوازع الديني على مَحو عُظم تلك الأشعار، وحضهم على نفيها. لقد كانت تلك النتاجات الأدبية- التي تحمل سمت السلب والرفض- ودور الرواة في المحو كفرسي رهان، ارتأى فيها عصبة الرواة أن تكون لهم الغلبة القاطعة دون الشعراء. لقد مثلت تلك الآليات مرقاة الخلود لذلك الطود الثقافي الشامخ من وجهة نظرهم. لقد شكل دور الرواة في الشعر العربي القديم حدثًا فاحصًا ينم عن آليات التفكير التي تعاورت عقولهم آنذاك. لقد سد هؤلاء الرواة على الثقافة العربية عُظم مسارب الإبداع، وحجبوا عن نواظر المتفحصين في ثنايا تراثهم ضياء الشاعرية المفتنة، ولعل المتفحص للتراث الشعري يلحظ أن ذلك الإرث الثقافي العظيم الشأولم يكن معبرًا عن عُظم الاتجاهات الفكرية السائدة، ولم يند بهم الانتماء البالغ لثقافاتهم عن مطارق التحفظ الأعمى، ومسالك المحو. لقد مثل الشعر" المسكوت عنه" في تراثنا العربي خير تَفْسِرَة عن كياناتهم وثقافاتهم، فلقد سال إبداع العرب في شعرهم كالماء القراح، الذي مثَّل دور الرواة والمستشرقين عقبات تعترض سبيل ذلك المجرى الذي يأتلق بفيوض الشاعرية.

وتطرح تلك القراءة إشكاليات عدة من بينها:

هل أزال هؤلاء الرواة والمستشرقون ستار الغيمة والعتمة التي ظللت ذلك الطود الثقافي الشامخ؟ وهل أبان النتاج الثقافي الشعري عما يعتور العقل العربي من قضايا وفلسفات وإشكاليات، وهل أفصح المروي من ذلك التراث الشعري عن فضاء الفكر العربي؟

إن المتامل لتراثنا الشعري يلحظ الدور البالغ العظيم الشأو للمسكوت عنه في الإبانة عن قضايا الفكر العربي، وإواليات العقل المتحكم في معطيات الثقافة والنتاج الفكري.

لقد استطاع ذلك" المسكوت عنه" أن يفصح بجلاءٍ وشفافيةٍ عن مدى العوار الذي يضرب في جذور الفكر العربي، ويتصدى لتوجيه الذائقة العربية بما يتفق مع معطيات البيئة والثقافة والعِرْق والدين.

لقد نصب هؤلاء الرواة والمستشرقون حبائلهم للنتاج الشعري، ورموا بعضه بسهام الشطط والدونية، وناصبوا عُظمه العداء إذا جاء على غير منهجهم وطرائقهم وإواليات أفكارهم ومعتقداتهم الدينية والفكرية.

تحاول تلك القراءة أن تخلص إلى الوقوف على تلك المسافات الفاصلة بين الرواة والمستشرقين والمحققين، وهل أنصف المحققون تراثهم العربي من غلواء الحذف والإقصاء، وهل وقف المستشرقون موقف السلب والعداء من ذلك التراث؟

لم تُقِلّ تلك العصبة النتاج الشعري التراثي من عثرة الضياع، فقد أناخوا به في مجاهل التيه، وأوغلوا في مسارب الفقد، وصارت مراوحات الخلق الفني الجديد لتلك النصوص التراثية تعد شاهدًا على موقف السلب، وأداةً كاشفةً عن الوجه الآخر لذلك العقل الجمعي.

لقد شكلت تلك الإواليات التي وظفتها تلك العصبة في بعض الأحايين أداةً طاعنةً في عضد ثقافتنا العربية، لقد شكل صنيعهم- من وجهة نظرهم- منحًا تطهيريًا قوضوا به دعائم تراثهم العربي.

إن تلك العلاقة الوثقى بين الأدب والأخلاق هي التي أوجدت بدورها مناطق مجهولة معتمة صماء، على المتلقي ألا يخوض في غمارها، ويكتنه أسرارها، ويفتض مغاليقها، وقد زخر تراثنا العربي بتلك المساحات الرحبة التي حظي بها المبدعون القدامى، وقد عبروا فيها عن طبائع عصرهم ورؤاهم، وأفاضوا على أدبهم لغة مكتنزة بالدلالات، ولكن عُظم المتصدين للنصوص في عصرنا الحديث سواء أكانوا من العرب أم من المستشرقين قد أخذوا على عاتقهم تنقيتها من تلك الأصوات الزاعقة – من وجهة نظرهم- التي رفعت سجف الأخلاق، وأتت على ذكر تعابير ممنوعة حسَب قواعدهم، وقد تناسى هؤلاء القائمون على نشر تلك النصوص وتحقيقها أن ذلك " المسكوت عنه" هو العتبة الرئيسة، والأداة الفاعلة الناجزة في قراءة تلك النصوص، والوقوف على مكنوناتها، فالمسكوت عنه قادرٌ على سبر أغوارها واستنطاق دوالها بصورةٍ فاعلةٍ لا تتحقق للمذكور عبر ثناياه.

لقد تفاوتت الآراء التي حللت وجهات المستشرقين في معالجتهم تراث العربية، فمنهم مغال، ومنهم مقتصد،كما سلف

القول، وقد نزع هؤلاء المستشرقون إلى تحري الدقة، وعملوا على تمحيص النص، ولعل أول ما نلتقيه في ثنايا تلك القراءة هو تقييم قراءة ذلك المستشرق الإنجليزي" مرجليوث"(١٢) الذي يعد علمًا من إعلام المدرسة الاستشراقية، وقد أثرى المكتبة العربية بجملة من الذخائر، وتصدى لتحقيق غير كتاب،(١٣) وتنهض تلك القراءة على تحليل منجزه في تحقيق ديوان سبط التعاويذي الذي قابله على نسختين، ولم يقف بنا على مقابلة تلك النسخ التي اعتمد عليها في تحقيقه، والأمر اللافت في ذلك المنجز التحقيقي هو ما قام مرجليوث بحذفه "عمدًا" من الديوان، وذلك وَفْق ما نص عليه في مقدمة التحقيق.

وقد أعمل مرجليوث مبدأ الانتقائية في اختيار نصوص الديوان، وحذف بدوره تلك الأشعار التي تتعارض مع معطيات الأخلاق في عصرنا الحاضر- حسْب تعبيره-، وهو بهذا يُقِيم على نفسه الحجة، فتعاطيه لتلك النصوص قد انطلق من قاعدية تحتكم إلى طبيعة عصرٍ مغايرٍ لعصر إنتاجها، الأمر الذي يجافي قواعد المنطق، ويتعارض مع منهجية التحقيق الذي يناط به إخراج النصوص على أقرب شاكلة وقت إنتاجها. ولكن الأمر اللافت للنظر في تلك الانتقائية المتعمدة هي حرص ذلك المستشرق على إواليات ومبادئ الثقافة العربية المحافظة الرصينة، التي تناهض كل ما هو مبتذل، وتسقط العمل به، أو تدوينه في متون كتبها. إن ذلك الصنيع يبقى حمَّال أوجهٍ باختلاف زاوية النظر إليه.

إن صنيع مرجليوث يغفل وضعية منتج النص الذي ينتمي بدوره إلى طبقة محافظة متدينة ، ويحتل في عصره مكانة رفيعة، فسبط التعاويذي يعد من أبرز رجالات عصره الذين يتمتعون بسمعة طيبة، ومكانة رفيعة، ولكنه في الوقت نفسه لا يتغافل عن معطيات الثقافة الآنية التي تعاطت تلك النصوص، وأطلقت حكمًا بإخراجها للنور من خزائنها.

ولعل من بين أهم شعراء العربية الذين وُضعوا تحت مقصلة الحذف والإقصاء لشعرهم هو الحسن بن هانئ الحكمي الشهير بأبي نواس، "فإذا تطلعنا ديوان أبي نواس نرى أن الناشرين حذفوا الكثير من القصائد التي تحث على المعاصي والأفعال غير الأخلاقية، لكن هذه القصائد المحرمة لأبي نواس تشكل جزء كبيرًا من شعره، وقد بلغ عدد القصائد المحرمة حوالي ثلاث مائة مقطوعة تعرضت للحذف والطمس والتشويه، وإن وجدت هذه القصائد تراها مشوهة مملوءة بالحذف والأخطاء الإملائية والنحوية دليلًا على أنها من وباءها وجحيمها".(١٤) وقد جهد الباحث محمد ثابت في جمع تلك النصوص التي أُسقطتْ عمدًا من الديوان. لم يكن أبو نواس فُرَدَةً في ذلك الصنيع، فقد طالت دواوين شعراء غيره حالات شتى من الحذف القسري والتشويه المتعمد.

إن كتب تراثنا العربي ملأى بالتعابير التي ارتأى فيها المعاصرون خروجًا سافرًا عن أخلاقيات العصر الحاضر، فكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني غاصٌ بالألفاظ التي تبنو عن الأخلاقيات من وجهة نظرٍ معاصرة. ولم تقف تلك المصطلحات الخارجة عائقًا أمام صدارته وجدارته بين كتب تراثنا الأدبي بعامة. إن تلك المصطلحات والتعبيرات التي عدها المعاصرون خارجةً نابيةً لا تعدو أن تكون سمتًا عاديًا، وظاهرةً تقربنا إلى نفسية أولئك الشخوص الذين غيبتهم القرون، ومرآةً كاشفةً لنفسياتهم وبيئاتهم ومزاجهم ومشكلاتهم، كان ينبغي على القائمين على إرثنا الثقافي أن يحتاطوا في معالجتهم له، وأن يعدوه عنصرًا مائزًا يتسم بالإيجاب والفرادة والقبول، وأن يستغلوا إمكاناته الكامنة كي يجلوا لنا طاقات ذلك الإرث الكامنة في زواياه البعيدة عن نواظرنا وعقولنا.

وقد شكَّلتْ كتب التراجم هي الأخرى شاهدةً على حجم المسكوت عنه في طياتها، فالمتفحص للتراجم ذاتها في كتب السنة والشيعة، يلحظ ذلك التفاوت البيِّن في بنية ترجماتها، فقد مثلت التيارات الدينية المختلفة أداةً فاعلةً لطمس كل فرقة دينية بعض تفصيلات الترجمة، وعملت كذلك على قولبتها في إطارٍ يتفق مع مذهبيتها دون أنْ تلج في غمار الموضوعية والحيادية الكاملة.

وتنتهي تلك القراءة إلى جملةٍ من الملاحظ جاءت على النحو الآتي:

- أُقْحِم الرواة في ضياع الشطر الأكبر من الشعر، ولعل استقراء الشعر العربي القديم يفضي إلى نتيجةٍ مؤداها أن الشعر المسكوت عنه المستند إلى تابوهات أخلاقية وسياسية ودينية كان أقل حضورًا من الشعر الممنوع بسبب القواعد الفنية والحداثة في تاريخ العربية.
- حرص المستشرقون المنصفون على إيصال التراث العربي منقحًا، فأعملوا فيه التدقيق، "فقد وفر لنا المستشرقون ألوف الذخائر العربية مرتبة محررة

موثقة، تجلها مكتباتنا، وتعتمد عليها جامعاتنا، ويستند إليها علماؤنا، إذ سبقنا المستشرقون إلى نشرها، لا لأمتنا فحسب، بل بترجمة معظمها إلى سائر لغاتهم ... وقد بلغ حرصهم على تطبيق منهجهم العلمي عليها إلى نشر بعضها في أكثر من سبع طبعاتٍ لمقابلتها على المكتشف من نسخها وتصحيح أخطاء أوائلهم، والاستدراك عليها، والبلوغ بها حد الكمال".(١٥)

- أساء بعض المحققين العرب إلى بنية تراثنا الشعري بحذف شطر واسع منه من خلال التحقيق المشوه الذي اعترى بنية نصوصهم،"نقابل صنيع من اشتغلوا منا بنشر المخطوطات، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بصنيع المستشرقين فتروعنا المقابلة: فأمانتهم في نقل النص يقابلها عندنا عبث بالنصوص يتناولها بالحذف والإضافة والتغيير... ودقتهم في مقابلة النسخ الخطية للنص والتماس الأصالة فيها والتثبت من صحة نسبها يقابلها عندنا إغفال لذكر النسخة المنقول عنها أو إخراج طبعات ملفقة مرقعة تنسب إلى المؤلف القديم دون أن يتصل به نسبها.. وبدا واضحًا أن أكثر القوم هنا لم يقصدوا إلى شيءٍ من النشر العلمي، ولا عناهم أن يثقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا أن يضبطوا أقلامهم بشيءٍ من نظمه ومناهجه، إنما اتخذوا النشر وسيلة ارتزاق فحسب".(١٦)
- ظهرت تجليات المسكوت عنه في بنية الشعر والنثر، وكذا في التراجم الأدبية.
- يؤكد استقراء نصوص التراث على أن العرب كانوا أكثر طواعية في رواية أشعارهم من تلك الصورة التي قولبها المستشرقون والمحققون العرب.

# المصادر والمراجع:

١. نجيب العقيقي، المستشرقون،ط ٤ دار المعارف مصر: ٦٠٦/٣.

٢. عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨: ٤٩.

٣. نجيب العقيقي، المستشرقون: ٦٠٦/٣، ٦٠٧.

٤. نجيب العقيقي، المستشرقون: ٣٩٤/٣.

٥. انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،ط ٢جامعة بغداد:٦/ ٥٧٩.

٦. جواد علي، المفصل في تاريخ العري قيل الإسلام،ط ٢جامعة بغداد٩:١٩٩٣/ ٢٩٧.

٧. طه حسين، في الشعر الجاهلي، ط مكتبة دار الندوة الإليكترونية: ٣٠.

٨. طه حسين، في الشعر الجاهلي: ٣٤.

٩. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٠٦/٩.

١٠. الشعر والشعراء، ط دار الثقافة، بيروت: ٢٣٩/١.

١١. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط دار المعارف: ١/ ٦٦.

١٢. أورد نجيب العقيقي ترجمه له في مؤلفَه "المستشرقون"، فيقول" مرجليوث .د.س (١٨٥٨-١٩٤٠) Margoliouth، D.S ولد وتوفي في لندن، وقد تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد، وأتقن العربية وكتب فيها بسلاسة، وأقام أستاذًا لها في جامعة أكسفورد منذ ١٨٨٩م، فعد من أشهر أساتذتها، وبين أئمة المستشرقين، ورأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، ونشر فيها بحوثًا ممتعةً. وكان لآرائه قدرها لدى أدباء العرب المعاصرين، وقد تعرف إلى بعضهم في تردده على الشرق الأوسط، ومنهم من رد عليه قوله بوضع الشعر الجاهلي في عدة كتب. وانتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي البريطاني، والجمعية الشرقية الألمانية، وغيرها: ٧٧/٢.

١٣. أورد العقيقي جملة من المؤلفات والتحقيقات التي قدمها مرجليوث للمكتبة العربية والتي من بينها:" مختارات شعرية لأرسطو مترجمة بالعربية والسريانية واللاتينية، متنًا يونانية وترجمة إنجليزية، مع تعليق ومعجم، في جزأين، ورسائل المعري، متنًا وترجمة، مع شرح وتذييل، وترجمة الأعلام، وديوان ابن التعاويذي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، نسخه وحققه وقدم له بالإنجليزية، وذيله بفهارس الأعلام والكتب، في سبعة أجزاء، والأنساب للسمعاني، من تجارب الأمم لمسكويه، متنًا وترجمةً في سبعة أجزاء، ونشوار المحاضرة للتنوخي، متنًا وترجمةً.

١٤. محمد ثابت السيد، القصائد المحرمة للشاعر الماجن أبي نواس والشعراء العرب:٦.

١٥. نجيب العقيقي، المستشرقون: ٣/ ٣٩٥.

١٦. نجيب العقيقي، المستشرقون: ٣/ ٣٩٦,٣